

الهوية البشرية المركبة والتعدد الثقافي عند إدغار موران

Compound human identity and multiculturalism At Edgar Morin

مختبر: الأبعاد البنيات النماذج والممارسات كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2، الجزائر.	فلسفة	ط: بلخضر وحيد Doc: Belakhdar Wahid belakhdarwahid2018@gmail.com
مختبر: الأبعاد البنيات النماذج والممارسات كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2، الجزائر.	فلسفة	إشراف: أد. دراس شهر زاد Pr. Derras Shahrazade derras.oran2@gmail.com
DOI: 10.46315/1714-009-003-024		

الإرسال: 2019/09/15 القبول: 2020/04/23 النشر: 2020/06/16

ملخص بالعربية:

يعد موضوع الهوية الثقافية من الموضوعات التي نالت حظا وافرا من اهتمام المفكرين في حضارة اليوم خصوصا وأنها تشهد على أمراض متعددة، ناتجة عن أخطاء العزل والتبسيط والاختزال، هذه الأمراض كلها ترد إلى ما يسمى بالذكاء الأعلى بلغة الفيلسوف الفرنسي إدغار موران الذي يجد نفسه أمام رهان الاعتراض على وحشية الإنسان المعاصر وبربريته التي أنتجت العقلانية الحدائية، وأمام التنظير إلى عقلانية مغايرة منفتحة يستهدف من خلالها بلوغ الطبيعة البشرية الحقيقية القائمة على الهوية الأرضية المركبة، التي تراعي مبدأ التعدد والاختلاف من أجل إغناء الخليط الثقافي الكوكبي.

الكلمات المفتاحية: الحدائية؛ الاختزال؛ الهوية؛ الثقافة؛ الاختلاف؛ التركيب؛ الإنسان.

Abstract:

Culture identity, considers like an important subject by sophists in civilization of nowadays, specifically it's suffered by many dilemmas caused by mistakes of Isolation, simplification and reduction, all of this it's named (blind intelligence). In language of French philosopher Edger Morin.

This philosopher was against human brutality and barbarity which producted by modern rationality ,in same time he has put other theory of rationality ,its purpose constitute in the knowledge of humanism true which based on Composite Ground Identity ,where it spoke about the variety and diversity ,in order to complete a good environment of culture in this planet.

Key words: modernity; Isolation; Identity; culture; diversity; composite; human being.

*- مقدمة:

يواجه العالم في ظل العولمة، والتقدم العلمي، والتّقي الكبير تحديات عديدة، خصوصا ما تعلق فيها بمسألة الهوية التي تعد من أبرز الموضوعات التي تخوض فيها الحضارة الغربية والتي نجحت من خلالها في فرض نفسها على بقية العالم مدعومة بالثورة التكنولوجية المتسارعة وثورة المعلومات والاتصالات التي ساهمت في إقصاء الهويات الحضارية الأخرى والخصوصيات الثقافية، وسيطرت نمط حضاري واحد تمكن من بسط هيمنته ونفوذه على العالم، وفرض ماديته التي تشكل رؤيته إلى الكون والتاريخ، في مقابل افتقاده للبعد الإنساني الحقيقي، انطلاقا من تعامله مع الإنسان اللأغربي الذي يعتبره هامشا وملحقا بالمركز الغربي، وهو ما جعل من مشكلة الحضارة الغربية مشكلة عالمية ينبغي تحليلها وفهمها في صلتها بالمشكلة الإنسانية عامة.

إن الحضارة الغربية القائمة على أسس فلسفة الحداثة قد كان لها دورا مهما في رصد مختلف الأعراض المرضية التي عرفت الحضارة المعاصرة كالاغتراب، والتشيؤ، والنزعة الفردانية التي سعى من خلالها الخطاب الحضاري الغربي إلى اختزال ثقافة الآخر وفرض منطق متحيز عليه، ومن خلال التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية له، ومن خلال نزعه وفصله عن سياق البناء الحضاري، وهو ما جعل بعض من عقلاء المجتمع البشري أمام حتمية المناقشة والرد على مثل هذه الأفكار وتوجيه انتقادات جذرية وعميقة للقيم التي تأسست عليها هذه العقلانية الحداثية فتعالت أصوات من داخل الغرب ومن خارجه رافضة هذا النموذج، ومن قلب أوروبا برز إدغار موران الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي الذي انتقد بشدة النموذج الحضاري الغربي الخاضع للفكر الأناني المتمركز حول ذاته، مؤكدا على ضرورة تعليم الهوية الأرضية المركبة، ومراعاة التعدد، والاختلاف الثقافي الموجود في العالم.

وعلى هذا الأساس يتبادر إلى أذهاننا التساؤل التالي:

كيف يمكن تجاوز ثنائية المركز والهامش التي خلقت الانشقاق والانقسام بين البشر من أجل بناء حياة مشتركة تتناغم فيها كل الثقافات؟ وهل يمكن الكف عن اعتبار التعدد الهوياتي القائم على الاختلافات العرقية والانثنية عوامل لإثارة الصراعات والحروب والنظر إليها كمصادر لتحقيق هوية بشرية مركبة؟

أولا- سيرة إدغار موران الفكرية

هو فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي معاصر، ينحدر من أسرة يهودية يونانية، اسمه الحقيقي إدغار ناحوم (Edgar nahom morin) ولد بباريس في 08 جويلية 1921 درس التاريخ، وعلم الاجتماع، والاقتصاد، والفلسفة (موران، إ، 2009، 01)، ويعد من بين أحد أهم الفلاسفة في القرن الواحد والعشرين، ومن بين أبرز الفلاسفة الذين صنعوا للفكر الفرنسي مكانته خلال العقود الأخيرة.

اكتشف موران عالم السياسة من خلال مناشير الأقليات اليسارية، ثم انتهى إلى الحزب الشيوعي الفرنسي كغيره من الفلاسفة الفرنسيين على غرار روجي غارودي (Roger garaudy) (1913_2012) ولوي ألتوسير (Louis althusser 1918-1990)، ثم حركة المقاومة ضد النازية (طرابيشي، ج، 2006، 645)، أين كان قائدا للقوات الفرنسية برتبة ملازم، وقد كان لهذين الالتزامين الخطورة الكبيرة على حياة إدغار موران، لأن سلطة الاحتلال الألماني كانت تحكم بالإعدام على كل منتسب للحزب الشيوعي، وكل منتم لتنظيمات المقاومة، حيث اعتبرت تجربة التهديد بالموت هذه أولى التجارب الفلسفية والوجدانية الحادة لدى موران، فقد كان قبل التزامه السياسي مثقفا ذاتيا لا يعيش إلا همومه الخاصة لكنه داخل العمل السياسي أخذ يصغي إلى

صوت آخر وهو صوت الخارج وفي هذا الصدد يقول "إن الاحتلال كان حريتي والتحرير كان انهياره" (طاهر، ع، 2005، 25)، لأن المعنى الحقيقي والعميق للوجود يكمن في مدى استحضارنا الدائم للموت والعيش في خطر حسب موران.

لكن إدغار موران وبعد نهاية الحرب ابتعد رويدا رويدا عن الماركسية الأثوذكسية طردًا بسبب انتقاده النهج الستاليني، وفصل من الحزب عام 1951 دون أن يمنعه ذلك من متابعة نشاطه الملتزم ضمن منظمات شتى مثل «لجنة المثقفين من أجل السلم» و«لجنة المثقفين ضد حرب الجزائر» (طرايبيشي، ج، 2006، 645).

اشتغل إدغار موران في مساره الفكري على جميع الاختصاصات والعلوم والمعارف من أجل استيعاب نتائج وكشوفات هذه الحقول والدوائر، والوصول إلى فهم محايث وأوسع للطبيعة البشرية (الخويلدي، ز، 2009، 43)، حيث نتج عن ذلك أكثر من سبعين كتاب في علم الاجتماع واللغة، والفلسفة، والسياسة، والمعرفة، ترجمت أغلبها إلى ثمان وعشرين لغة في اثنين وأربعين دولة، ويعتبر كتابه المعنون بـ "المنهج" من أهم المؤلفات التي كرّس لها جهده وفكره، ويحتوي هذا الكتاب على ستة أجزاء متتالية "طبيعة الطبيعة" 1977 "حياة الحياة" 1980، "معرفة المعرفة" 1986 "الأفكار" 1991، "إنسانية الإنسانية الهوية الإنسانية" 2001، "الأخلاق" 2004، تبّنى في الجزء الأول وجهة نظر فيزيائية لدى معالجة مقولات النظام والفوضى والمنظومة والمعلومة، وفي الجزء الثاني ركّز على العلاقة بين الفلسفة والبيولوجيا، وفي الجزء الثالث عالج مسألة المعرفة من زاوية أنثروبولوجية (موران، إ، 2012، 12)، وفي الجزء الرابع قام إدغار موران بتحليل ظاهرة التعقيد في الفكر الفلسفي مركزا على مقولات اللغة والمنطق والبرادغم، وفي الجزء الخامس عالج مسألة الهوية، أما في الجزء السادس فيدرس العلاقة القائمة بين المعرفة والواجب وبين الوعي الفكري والأخلاقي، وبين الإرادة الأخلاقية والنتائج اللاأخلاقية (موران، إ، 2012، 13).

لم يكتف إدغار موران بهذه الأجزاء فقط بل كانت له سلسلة من الكتب نذكر بعضها منها: "تربية المستقبل" 2002، "الفكر والمستقبل" 2004، "ثقافة أوروبا وبربريتها" 2007، "النهج إنسانية البشرية، الهوية البشرية" 2009، "إلى أين يسير العالم؟" 2009، "هل نسير إلى الهاوية؟" 2012، "تعليم الحياة بيان لتغيير التربية"، 2016... الخ.

إن بلوغ إدغار موران هذا المستوى لم يكن بمحض الصدفة بل كان نتيجة احتكاكه وتأثره بأفكار غيره من الفلاسفة والمفكرين الذين عايشهم بالروح والزمن، وخصّهم بكتاب أسماه "فلاسفتي"، نذكر منهم هيراقليطس فيلسوف الجدليات الكبرى والذي يعتقد بأن "الأضداد لا بقاء لها إلا بفضل الوحدة التي تغلفها وتحدها بعضها ببعض، وتنزع جميع دروس هيراقليطس نحو تأليف مذهب واحد فريد في عمقه فجميع تلك المتضادات تلتقي في تضاد واحد" (بريه، إ، 1982، 77)،

وهو ما جعل إدغار موران منبهاً بفلسفته، وكذلك الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال الذي كان وقعه شديد الأثر على إدغار موران، حيث وجد فيه ذلك الشيطان السقراطي، الذي جمع بين العقل والدين محتويًا بذلك الحوارية الكبيرة في عصر النهضة، أي العلاقة التعارضية والتكاملية معاً (نبيلة، 1، 2017، 85)، كما يمكن ملاحظة تأثير إدغار موران بوضوح بفلسفة هيجل القائمة على فكرة الجدال التي تعني التطور المنطقي للفكر أو للحقيقة من خلال الانتقال من الفكرة ونقيضها إلى المركب من هذه المقابلات (نبيلة، 1، 2017، 87)، بالإضافة إلى بعض الفلاسفة المحدثين والمعاصرين الذين ذكرهم إدغار موران على غرار جون جاك روسو، رونيه ديكار، اسبينوزا، إيمانويل كانط، وكارل ماركس، وكذا فلاسفة مدرسة فرانكفورت وعدد من الأدباء والعلماء.

ثانياً: أزمة العقل الحداثي

يعد العقل من أهم مميزات الإنسان التي تميزه عن غيره من الموجودات، نظراً للأهمية البالغة والدور الكبير الذي حدّده العقل في حياة الإنسان الاجتماعية والثقافية والسياسية منذ القديم، وهو ما نلمسه عند اليونان بالخصوص، حيث يقول هيراقليطس: "بالعقل ترتفع إلى معرفة قانون الصيرورة، وفي استيعاب هذا القانون يكمن واجب الإنسان والطريق الوحيد إلى السعادة، والإنسان إذا فهم هذا يصبح سعيداً وراضياً." (ستيس، و، 1984، 75)، وقد أكد عن ذلك أيضاً أرسطو حين جعل من المنطق آلة تساعد العقل وتعصمه من الوقوع في الخطأ، وفي العصور الوسطى نجد أن العقل قد حلّ في المرتبة الثانية بعد النص الديني مع الفيلسوف توما الإكويني من أجل إزالة اللبس والغموض عنه حتى لا يتناقض مع العقل، أما في العصر الحديث فإن العقل اكتسب موقعا مميزا خصوصاً بعد بروز العلم الجديد الرياضي منه والطبيعي، وظهور جهاز مفاهيمي مخالف للعصر الوسيط، وسيادة النزعة الإنسانية التي أعادت الاعتبار للعقل البشري وآمنت بقدرته على فهم العالم والسيطرة على الطبيعة.

يعد الفيلسوف الفرنسي رونيه ديكرت (1596-1650) زعيم النزعة العقلانية في العصر الحديث، والذي عمل على إضفاء النزعة العقلية على جميع نواحي حياة الإنسان الاجتماعية والسياسية والعلمية من أجل تحريره من الخرافات الميتافيزيقية التي اكتسبها خلال العصور الوسطى، ومن أجل بناء معرفة صحيحة ومتكاملة يحتل فيها العقل موقعا مركزيا كونه "لا يعطي دلالة إلا للموضوعات التي تستجيب لمبادئه ووحداته المنهجية (من هذه الوحدات المنهجية الملاحظة، الفرضية، التجربة، الصياغة الكمية للواقعة الترييض أي استخدام اللغة الرياضية) وما لا يقع أو يستجيب لهذه المبادئ والمناهج فهو من جنس اللأمعقول، وبالتالي لزم اقصاؤه" (بلعروز، ع، 2017)، فبرزت العقلانية في العصر الحديث كان بمثابة ثورة أصبح الإنسان من

خلالها يحدد مصيره بنفسه دون تدخل لأي قوى غيبية، فكانت هذه الثورة بمثابة "إعادة الاعتبار إلى الإنسان كذات حرة واكتشاف دور العقل في فهم العالم والتخلص من هيمنة الذهنيات التي تتقنع الدين وتتحالف مع قوى المال والسلطة" (بلعقروز، ع، 2017)، فالعقل إذن أصبح الميزان الذي يتم من خلاله تحديد الصواب من الخطأ، وهو المصدر الأساسي للمعرفة وبوساطته يمكننا البرهان والاستدلال.

غير أن هذه العقلانية التي كانت تهدف إلى تحرير الإنسان وتحميله القدرة على تحديد مسار حياته ومصيره بنفسه سرعان ما حادت عن أهدافها، واتجهت نحو طريق معاكس خصوصاً بعد دعم العقل المتواصل للعلم والقطيعة مع الوحي وبروز العقل الأداتي الذي سار في إطار سيطرة المادة، في مقابل عدم الاهتمام بالقيم والغايات، وهو الأمر الذي أكدته فلاسفة مدرسة فرانكفورت على غرار أدورنو الذي قال عن العقل الأداتي بأنه "ذلك العقل الذي سخر لأسوء مشاريع القتل، بل وينبغي أن نمضي إلى حد تجاوز الفكرة القائلة بالعقل الخالص، إذ ليس من وجود لعقل خالص، وليس من وجود لعقلانية بدون شعور وبدون وجدان" (عادل، ه، 2015، 617)، وهي الفكرة التي حاول تأكيدها الفيلسوف إدغار موران الذي حمل مطرقة النقد في طبيعة العقل الحداثي ومخلفاته محاولاً بذلك رسم معالم مشروع تنويري جديد لفلسفة الحداثة.

يرى إدغار موران بأن الأزمة التي تنخر كوكبنا ليست أزمة معرفة أو ثقافة بل هي أعمق من ذلك لأنها أزمة عقل بشري متصدّع، تحمل في طياتها معنى الشمول والاتساع، تقود الإنسانية إلى ما لا يحمد عقباه، والحال أن هذه الفوضى التي توشك أن تسقط فيها البشرية تحمل في ذاتها فرصتها الأخيرة (موران، إ، 2012، 16)، وقد أشار إدغار موران في كتاباته إلى عدد من المظاهر والإفرازات المختلفة لأزمة العقل الحداثي نذكر منها:

1- الفردانية

انتقد إدغار موران الحضارة الغربية أشد الانتقادات لأنها شجّعت على الأنانية المفرطة والفردانية القائمة على أساس التشريع للذات في انفصال كلي عن جميع أشكال الأمر والإلزام، سواء كان ذلك متعلقاً بالكنيسة أو المجتمع أو أي سلطة خارجية (بوحناش، ن، 2003، 10)، وفي هذا الصدد يقول إدغار موران: "الفردانية هي في الآن ذاته علّة ونتيجة للاستقلاليات، والحريات والمسؤوليات الفردية، لكن من نتائجها السلبية تراجع العلاقات التضامنية القديمة، وتشردم الأشخاص، وضعف الحس بالمسؤولية نحو الغير، وتنامي الشعور بالأنانية، والميل المتزايد لما يسمى بانبثاث الأنا". (موران، إ، 2010، 13)، بمعنى أن الفردانية التي تعتبر من أبرز مظاهر أزمنا الحضارية لما تشكّله من حالة اغتراب، تؤدي إلى الإقصاء والاتواصل والصراع، وبالتالي تعميم

اليأس والتشاؤم في كثيرٍ من الأحيان، وتغيب لروح التضامن والمحبة بين أفراد المجتمع، مما يعني افتقارنا للوحدة المعقّدة لهويتنا بالضرورة.

تبدو فكرة الفردانية أو نزعة التمرکز حول الذات صفة تلازم الناس في الحضارة المتفوقة التي تجسد في الحضارة الغربية، وترتبط بالقدرة على قول الأنا للذات فقط دون الاكتراث بالعالم وبالأخرين وتؤدي إلى التفوق والتبسيط والإقصاء والاختزالية ويقترح موران لنقد هذه المركزية الذاتية المرور من الوعي بالتمركز الذاتي إلى التفكير الذاتي النقدي، وذلك بالاعتراف بالغيرية وبتممين ظاهرة تكوثر الطبيعة البشرية بأن يقول أنا للآخر ويتضامن مع جميع شرائح المجموعة البشرية (الخويلدي، ز، 2009، 55).

2- التقنية

يمكن القول إنّ فلسفة الحداثة قد قامت أيضا على أساس الوثوق الأعلى في نتائج العلم والتقنية، حيث صار: "العالم منظورا إليه كعلاقة رياضية وكجملّة من الظواهر الموضوعية التي تنظّمها علل وأسباب عقلية تحدّد حتميات فيزيائية لا دخل فيها لقوى متعالية، بحيث أفرغ العالم من محتواه الميثولوجي الديني، وألبس لبوس المعقولة العلمية والدقة الرياضية والتجريد الموضوعي" (محمد، أ، 2006، 14)، وعليه فإن التطور العلمي والتقني الكبير هو المسؤول عن إدخال الإنسان في حالة من الاغتراب والتقهقر بعد أن كان يظن نفسه سائرا نحو التقدم والازدهار.

إن التقنية المتمثلة في جملة الوسائل، والأدوات التي ابتكرها الإنسان بالاعتماد على العلم يراها إدغار موران أداة لخدمة الاستعباد والموت وبإمكانها إبادة الإنسانية ككل جراء إتاحتها الأسلحة النووية والكيمياوية والبيولوجية، وتسببها في تدهور المحيط بعد أن أصبحت سفينة الأرض الفضائية لا تخضع للضبط السياسي أو الإيتيقي، ولذلك فإن ما يبدو أن من شأنه أن يضمن التقدم المؤكد يتيح بطبيعة الحال إمكانية مخصصة بالتقدم في المستقبل، لكنه يسبب المخاطر أيضا ويزيد من عددها (موران، وآخ، 2009)، بحيث يقول موران عن ذلك: "لقد مكّن التقدم العلمي من إنتاج الأسلحة النووية وأسلحة أخرى للدمار الشامل كيمياوية، وبيولوجية وأتاح لها الانتشار الواسع، وتسبب التقدم التقني والصناعي في مسلسل من التدهور في المحيط الحيوي". (موران، إ، 2012، 11)، وهذا دليل على أن التقدم التقني يحمل جانبا سلبيا يحضر معه بربريته الوحشية التي تعود بالسوء على الإنسان الذي أنتجها من خلال إلحاق الضرر بالبيئة وانتهاك الحق الإيكولوجي الذي لا يعود إلا بالدمار على الإنسان والأرض.

3- التغريب

أدرك إدغار موران من خلال تحليله لواقع الحضارة الغربية وتشخيصه لأمراض العقل الحدائي أن مشروع التغريب القائم أساسا على الانغلاق حول الهوية اللاتينية والدينية والقومية (موران، وآخ، 2009، 62)، يعد من أبرز مقومات الحداثة وأهدافها الغربية التي يقف من ورائها علماء سياسة ومنظرين كثر على غرار الأمريكي صمويل هنتنغتون الذي كتب في ربيع 1933 مقالا موسوم بـ: "تصادم الحضارات"، تم نشره في مجلة "فورين أفيرز" من أجل تقديم أطروحة جديدة للأمريكيين حول المرحلة الجديدة التي تمر بها السياسة العالمية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية (سعيد، وآخ، 2009، 43)، والتي يعاد تشكيلها على أساس الهوية الثقافية، باعتبارها العامل الرئيسي في تحديد العلاقات بين الشعوب، ويعتبر هنتنغتون فيها انتصار المعسكر الغربي على المعسكر الشرقي هو بداية لصراع طويل ممتد بين الغرب النصراني والحضارة الإسلامية والآسيوية نتيجة رفضهما للتغريب، وفي ذلك يقول هنتنغتون: "منذ منتصف التسعينيات أصبحوا يترددون في إعلان تفوقهم على ثقافة الغرب، الحضارتان الآسيوية والإسلامية تقف كل منهما منفردة في ثقافتها المتزايدة وتأكيد نفسها بالنسبة للغرب وأحيانا تتفقان معا." (هنتنغتون، ص، 1999، 169) فهنتنغتون يبدي تخوفه من الحضارتين الإسلامية والآسيوية ويرى أن التحدي الذي يواجهه صانعو السياسة في الغرب وأصحاب القرارات هو ضمان تفوق الغرب والدفاع عن هذا التفوق ضد البقية، وهو الأمر الذي جعل من الفيلسوف إدغار موران يحذر من تفاقم الوضع الذي من شأنه أن يخلق بؤرا جديدة للصراع داخل الأمم، تزايد على إثرها الصدمات والأحقاد والانتفاضات وأعمال القمع والرعب، في ظل الهزات الكونية التي تتجابه فيها الديانات فيما بينها في الشرق الأوسط، والصراع الإسرائيلي الفلسطيني الموجود في هذه المنطقة الزلزالية، والذي يمثل في حد ذاته سرطانا ينذر انتقاله بالانتشار في أرجاء الكرة الأرضية (موران، وآخ، 2009، 63)، وفي ظل عجز أوروبا عن إثبات وجودها سياسيا، وعجزها عن الانفتاح على الآخر اللأغربي وإقصائها له، وعدم الاعتراف بفضله مساهم في بناء حضارتها كالإمبراطورية العثمانية، بالإضافة إلى نسيانها أن المسيحية هي التي لم تبد في الماضي تسامحا بالنسبة إلى أي ديانة أخرى بينما كان الإسلام الأندلسي والعثماني يقبل المسيحية واليهودية، وعليه فإن إصلاح حضارة اليوم وإنقاذها من شبح التدمير الذاتي للإنسانية لا يمكن أن يكون إلا من خلال إيجاد أشكال تطور مغايرة للأشكال المستنسخة وفق النموذج الغربي (موران، وآخ، 2009، 65)، وبالتالي رفض كل ما له صلة بمشروع التغريب.

ثالثاً: ضرورة التفكير المركب

المركّب أو المعقّد complexus هو ما تم نسجه ككل (موران، إ، 2002، 37)، وهو في الواقع مفهوم حديث الإنشاء والاستعمال، سواء في مجالات البحث العلمي والدراسات الإبيستمولوجية أو في مجال الفلسفة والإنسانيات، ففي الفيزياء وعلم الفلك وعلم الحياة أجبرت الكشوفات العلمية المتلاحقة العلماء والدارسين على الاعتراف بالتعقيد بوصفه واقعة علمية مخصصة تتحرك في فلكه المفاهيم الإجرائية الأخرى، وأوحت للفلاسفة والأنثروبولوجيين بفكرة إنشاء فكر مركب، يوحد بين المعارف والاختصاصات ويهدف إلى فهم الحقيقة الإنسانية في تنوعها وتطورها وتناقضها وأخطائها وأزماتها... الخ (الكلاعي، وآخ، 2015، 348)

حيث باتت فكرة المركّب أو المعقّد تشكّل مشروعاً فكرياً مهماً يتفق عليه عدد كبير من الفلاسفة والباحثين على غرار إدغار موران الذي جعل من فلسفته خليط مركب من نظريات متعددة من الأنثروبولوجيا والسبرانية المنظمة والقانون المركب وغيرها (عادل، ه، 2015، 619)، وهو ما دفعه إلى الدعوة للتخلي عن النظرة الأحادية للإنسان وضرورة الإقرار بالتعدد والاعتراف بالآخر إذ يقول: "ينبغي للقرن الواحد والعشرين أن يتخلى عن الرؤية الأحادية التي تنظر إلى الإنسان من وجهة نظر عقلانية (الإنسان العاقل)، وتقنية (الإنسان الصانع) ونفعية (الإنسان الاقتصادي)، ومن وجهة نظر حاجاته الضرورية (الإنسان النثري)، إن الإنسان كائن مركب يتشكل من أزواج من الخصائص المتعارضة، العقل/الجنون، العمل/اللعب الواقع/الخيال، الاقتصاد/التبذير، النثر/الشعر." (موران، إ، 2002، 54)، فالإنسان إذن هو كائن عاقل وعامل وواقعي واقتصادي وثنوي، ولا يمكن اختزاله فقط في العقلانية أو التقنية، فإعادة الاعتبار للإنسان وإعادة إدماجه في الطبيعة متوقف على إلزامية تبني الفكر المعقّد، الذي يعبر عن تعقّد الواقع ويبحث في تعقّد الطبيعة وطبيعة التعقّد complexité ويعطي الكلمة لكل العلماء من جميع الاختصاصات انطلاقاً من البيولوجيا وعلماء النفس والاجتماع والتاريخ والجغرافيا والمناخ إلى علماء الأعصاب والتشريح والوراثة واللغة والاقتصاد والتقنيات الحديثة من أجل دراسة الكون دراسة متكاملة تقترب من الجزئي وتعيد تنظيم الكلي (الخويلدي، ز، 2009، 61).

لكي يقوم الفكر بمهمته التعقّدية هذه ينبغي توافر شرط أساسي يتمثل في ضرورة إصلاح بني هذا الفكر نفسه لأن الأمر لا يقتصر على ترصيف معلومات متنوعة عن الطبيعة البشرية بل يتعدى ذلك لفهم طبيعة هذه الطبيعة وإدراك الجانب الثقافي في هذه الطبيعة بإبراز نقاط الوصل والأفكار النازمة لها جميعاً من أجل إدراك لحظات التأنس hominisation. يقول إدغار موران: "إن إصلاح الفكر مشكلة إنسانية وتاريخية هامة ولم يحدث في تاريخ البشرية أن كانت مسؤوليات الفكر بهذا الثقل الذي صارت إليه اليوم." (موران، إ، 2012، 61) وبالتالي: "إدغار

موران يشدد على أهمية النظر في إصلاح الفكر البشري من خلال تحقيق التواصل بين الجسم والروح وتجاوز الجدل العقيم بينهما خصوصاً وأن الدماغ ينتهي إلى الدائرة البيولوجية، والروح تنتهي إلى الدائرة الثقافية، وما يمكن القيام به ليس ضم الدائرتين ودمجهما في دائرة واحدة بل تحقيق التواصل بينهما كدائرتين مستقلتين بين بعضهما." (الخويلدي، ز، 2009، 49).

من هنا يمكن القول إنّ الفكر المركّب أو المعقّد هو عبارة عن تريباق لإصلاح العقلانية الغربية الحدائنية المغلقة، من خلال إدخالها في الإطار التركيبي التكاملي بهدف التوصل إلى عقلانية حقيقية منفتحة تكون ثمرة لنقاش الأفكار بالأدلة والبراهين دون احتكار أو اختزال لنظام أو نسق معين للأفكار.

رابعاً: تعليم الهوية الأرضية

أصبح مفهوم الهوية مقولة مركزية داخل الدراسات الثقافية المعاصرة، بسبب الانتشار الكبير لمظاهر العنف والفوضى الناتجين عن حالة التعصب والتمييز العنصري التي أدت إلى إيذاء الآخر وارتكاب المآثم في حقه، فالهوية هي مفهوم يتعلق بالأوصاف الثقافية للأشخاص، التي تعرّف من خلالها بشكل وجداني، كما تهتم بالمماثلة والمغايرة، وتعتبر إنشاء ثقافي، كون المصادر الخطائية التي تكوّن ماديّة الهوية تعدّ مصادر ثقافية بطبعها، وبشكل خاص فنحن مشكلون كأفراد داخل عملية اجتماعية يمكن فهمها عادة كمثاقفة ودونها لا يمكن أن نكون أشخاصاً (باركر، ك، 2018، 382)، بمعنى أن ماهية الشخص تشكلها انتماءاته الثقافية، ودونها لا يمكن لمفهوم الهوية أن يتضح لنا.

ينطلق إدغار موران في دراسته للهوية البشرية من تأكيده على الأصل الواحد للبشر والذي يتجسد من خلال الموروث الثقافي المشترك بين الجميع، على الرغم من الاختلافات الفردية والاجتماعية الظاهرة، حيث يقول: "إنّ الموروث الوراثي نفسه مشترك بين جميع البشر ويضم جميع الصفات الموحدة الأخرى (التشريحية، والمتعلقة بالشكل والدماغ) ويتيح التزاوج بين جميع البشر، من أوروبيين واسكيمو وأقزام، ويعيش كل فرد حياته ويكابد بوصفه فرداً مميزاً، وهذه الخصوصية التي تميز كل شخص عن الآخر مشتركة بين الجميع." (موران، إ، 2009، 74)، بمعنى أن التنوع الثقافي والاختلاف العرقي والاثني لا يمنع من وجود روابط بيولوجية واجتماعية مشتركة، ناهيك عن اللّغة التي تُعدّ سمة جوهرية للوحدة البشرية التي يحظى من خلالها كل مخلوق بشري بالقدرة على الإفصاح عما في نفسه بالإضافة إلى وحدة الانفعالات، والعواطف التي تكون فطرية لدى الكائنات البشرية القديمة والحديثة كالتعبير عن الفرح، واللّذة، والسعادة، والحزن، والحب، والعطف، والصدقة والاحترام... الخ، وقد صدق فولتير حين قال: إنّ للصينيين

والأوروبيين العواطف نفسها وأنهم سيشعرون بالفرح والحزن على نحو متساوٍ. (موران إ، 2009، 75.76).

يجب علينا إذن أن نتعلم كيف نعيش فوق هذا الكوكب، وكيف نتقاسم الأشياء بتساوٍ وكيف نتواصل، ونعترف بوحدتنا في إطار تعدديتنا، وأن نكون أكثر وعياً بأننا نعيش مع جميع الكائنات داخل محيط حيوي واحد نتخلى من خلاله عن حلم السيطرة على الكون ونعمل أكثر على تنمية الطموح نحو التعايش داخل كوكب الأرض (موران إ، 2002، 70)، وذلك متوقف حسب موران على ضرورة إعادة تأسيس معنى للإنسان من خلال اعتماد خطاب جديد حول علاقة الأنا بالآخر وفق نظرة متكاملة بين جميع الأطراف، "مع توفر الحد الأدنى من التعايش والاندماج والإحساس بالآخر، ودون هذا الشعور بالتعاطف مع الغير والانتماء إلى مجموعة سيكون الخراب وتجفيف منابع الحياة من العالم الإنساني." (الخويلدي، وآخ، 2014، 1422).

ولم يتوقف إدغار موران عند هذا الحد فقط بل اتخذ من التعاطف فضيلة بين الدّوات لبناء الهوية المركبة كبديل للوضع البائس الذي آل إليه إنسان هذا العصر، خصوصاً مع تنامي طرق تدميره وانحلاله حيث يقول في هذا السياق "أنا أنفتح على الآخر وأجعل من هذا الآخر يثبت هويته معي" (الخويلدي، وآخ، 2014، 1423)، فهويتنا إذن هي جمهرة من الهويات المتألّفة والتعاطف هو اللّحظة التي أحس فيها أنني أنت، وأكف عن اعتبارك مجرد موضوع بل إنني أدركت كذات أخرى أطابق معها وأجعلها متطابقة معي، ولا شك أن الفهم هو الشرط الأساسي لإمكانية التعاطف بين الأنا والآخر، فمثلاً: "إذا رأيت طفلاً يبكي سأفهمه ليس بالاعتماد على قياس درجة ملوحة دموعه، ولكن اعتماداً على الغوص في أعماقي واستخراج كل الشدائد التي عشتها في طفولتي، إذ أجعل هذا الطفل متماهياً معي، كما أجعل نفسي متماهية معه." (موران إ، 2002، 88)، أي أن تعاطفي وشعوري بالحزن معه مكّني من فهمه وبالتالي التواصل معه، فلا شيء إذن يمكن أن يحصل مستقبلاً بخصوص تطهير الإنسان في الكون وتحقيق العيش المشترك بين مختلف الأعراق والثقافات دون هذا النمط من العلاقات.

إن الهوية التي يقصدها إدغار موران ويؤكد على أهميتها لضمان مستقبل الإنسانية هي: "الهوية الكونية التي تضم الانتماء للعائلة والجهة والعرق واللغة والدين والوطن والمذهب الفلسفي، والقارة والمحيط الجغرافي السياسي في تركيب إنساني تعقيدي تعددي وفي تعايش حكيم، يحافظ على تنوع الثقافات وتعدد المجتمعات واختلاف الأعراف." (الخويلدي، وآخ، 2014، 1424)، فمستقبل الهوية الإنسانية مرتبط بمدى احترام الناس لمطلب انجاز الهوية الأرضية أو الكوكبية، التي لن تتحقق إلا ضمن تحول الفرد إلى شخص كوني وتحول المجتمع إلى دائرة المجتمع العالمي.

يقصد بالثقافة في معناها الخاص تنمية بعض الملكات العقلية، أو تسوية بعض الوظائف البدنية، ومنها تثقيف العقل، وتثقيف البدن، كأن تقول الثقافة الرياضية، والثقافة الأدبية أو الفلسفية، وبالمعنى العام هي ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق، وحس انتقادي وحكم صحيح، أمّا إذا دلّت الثقافة على معنى الحضارة، فسوف نلتبس لها وجهين، وجه ذاتي يتمثل في ثقافة العقل، ووجه موضوعي يتمثل في مجموع العادات، والأوضاع الاجتماعية، والآثار الفكرية، والأساليب الفنية والأدبية، والطرق العلمية والتقنية، وأنماط التفكير، والإحساس، والقيم الذائعة في مجتمع معين (صليباً، ج، 1982، 379، 378).

أما عند الفيلسوف إدغار موران فالثقافة تعني: "مجمّل العادات، والتقاليد والممارسات، والمهارات، والمعارف، والقواعد، والمعايير، والممنوعات، والاستراتيجيات والمعتقدات، والأفكار، والقيم، والأساطير، والطقوس، التي تستمر من جيل إلى جيل وتتوالّد داخل كلّ فرد، تنتج التعقيد الاجتماعي وتجده". (موران، إ، 2009، 77)، بمعنى أنّ الثقافة التي تبدو في ظاهرها شديدة الاختلاف والتنوع هي واحدة في أصلها، ذلك أنّ جميع المجتمعات تتميز بطقوس دينية وعبادات، وتقاليد، وقصائد شعرية، وطبوع موسيقية خاصة تساهم في إثراء البعد الثقافي المشترك للإنسانية.

إن تعريف الثقافة البشرية حسب موران لا يمكن أن يضبط إلا من خلال التنوع والاختلاف لأن الثقافة تتشكل من طريق الثقافات، ولا يوجد مجتمع بشري قديم أو حديث من دون ثقافة تميزه، والعلاقة بين وحدة الثقافات وتنوعها أمر جوهري، فنحن نقول مثلاً الأسطورة، لكن الأسطورة لا تنتشر إلا من خلال الأساطير، ونقول الشعر رغم أن الشعر لا يحرك مشاعرنا إلا من خلال الأشعار، ونقول اللغة الخاصة رغم تنوع اللغات وثنائها على وجه الأرض، ونقول المجتمع مع علمنا أن إدراكه لا يتم إلا من طريق الأنماط المتنوعة للمجتمعات في تاريخ البشرية، والشيء نفسه بالنسبة للدين، والسحر لذلك يمكن القول إنّ الوحدة هي التي تتيح هذه التعددية (موران، إ، 2009، 80).

337

موران في هذا الشأن: "إن الانفتاح على الذات والانفتاح على الآخر هما تحديا وجهان لعملية واحدة." (الخويلدي، ز، 2009، 64)، بمعنى أن الميل نحو الانفتاح على الثقافات الأخرى والتمازج والتنوع في مقابل الانغلاق الكلي هو الشرط الوحيد لتجديد وتطوير الخصوصي والمساهمة في إنتاج الكوني، لذلك نجد موران يحذر من الحضارة الغربية التي تعيش أزمتا متعددة أمام استفحال ظاهرة العولمة، التي أنتجت الفردانية والأنانية وحطمت جميع الأشكال القديمة للتضامن وتسببت في قلق نفسي وفكري في قلب الإشباع المادي (Moran, E., 2011, 22) وخلقت أفكارا فضيعة لا تمت بصلة للإنسانية ومبادئها. وأمام هذه النظرة القائمة على العزل والإقصاء فإن العالم سيكون عالم رعب وحرب، ومستقبل الإنسانية سيكون محفوف بالمخاطر والصراعات، والطريق الوحيد الذي ينبغي أن تسير فيه الإنسانية مستقبلا هو طريق الاندماج والتشارك والتعاون، من خلال التعود على الإقامة مكان الآخر واتخاذ هذا الالتقاء بالآخر كطريقة لإنجاز الإنسان لذاته، ثم تبني التصور الديمقراطي بوصفه الإثبات الاليتيقي لحقيقة العيش سويا (الخويلدي، ز، 2009، 65).

*- خاتمة

يمكن القول بالاستناد إلى ما سبق أن جهود الفيلسوف إدغار موران في قراءته لواقع الحضارة المعاصرة بتجلياتها المختلفة وأبعادها المتنوعة، قد انصبت على جانبين اثنين، جانب نقدي يستهدف النزعة التبسيطية والاختزالية التي شكّلتها فلسفة الحداثة، وجانب تأسيسي قائم على بلورة فلسفة بديلة مبنية على ضرورة الاعتراف بمدى تركيب العالم وتعقيد ظواهره، ولتوضيح أكثر يجدر بنا أن نعرض أهم النتائج التي توصلنا إليها في بحثنا هذا ونجملها في النقاط التالية:

- شكّل العقل تاريخيا أهمية كبيرة في تنظيم حياة الإنسان ودورا بارزا في فهم العالم وما يحيط به من تغيرات، وأكسب الإنسان كمّا هائلا من المعارف الصحيحة والمتكاملة، لكن وبالرغم من ذلك بات يمثل تهديدا لوجود الإنسان ذاته، بعد أن أصبح خاضعا لقيم المادة، فاقدا للغاية وللقيم الروحية، وقد تزامن ذلك مع بلورة المشروع التنويري للحداثة.

- تسببت فلسفة الحداثة بفعل قيامها على التحرر المطلق وجعلها الذات مركزا لكل شيء، ووثوقها اللامحدود في نتائج العلم والتقنية، في تنامي الشعور بالأنانية، وانعدام المسؤولية اتجاه الآخر المغيب عن الركب الحضاري، وتراجع قيم التضامن والمحبة والتسامح والتعايش، خصوصا بعد بروز الملامح الكبرى لمشروع التغريب المبني على أساس الانغلاق التام حول الهوية الثقافية اللاتينية.

- يرفض إدغار موران تلك الرؤية الدوغمائية التي تختزل الإنسان في حدود العرق أو الايديولوجيا، وينبذ بشكل واضح وصريح التصورات المذهبية والطائفية، ويدعو في المقابل إلى الاستثمار فيما

هو مشترك بين الذات، ويجعل من وجود الآخر شرط ضروري ومهم في معرفة الأنا، نظرا لاشتراكه معنا في تحديد مستقبل الانسانية، سواء كان هذا الانسان مشابها أو مخالفا لنا في سماته الفيزيولوجية والاثنية والثقافية.

- لا بد من تجاوز دائرة الانغلاق والأناية التي خلقت لنا عوالم خاصة، والانفتاح والتعاطف مع الجميع من أجل بعث رؤية جديدة في الانسان تحيي فيه روح الأمل نحو القضاء على مظاهر القلق والاضطراب والاعتراب، وتؤسس لثقافة الاختلاف والمشاركة والحب والتآخي والفعل وتعترف بالهوية الأرضية التي أصبحت ضرورية لكل واحد منا، وتؤمن بالمصير المشترك للإنسانية، ويكون التعليم على هذا الأساس هو المسؤول على توظيف هذه القيم بجعلها أهم أهدافه، حتى يبلغ الأدوار المنوطة به، ويحقق بذلك ما يسميه إدغار موران المواطن الكوكبية.

قائمة المصادر والمراجع

- باركر، ك. (2018). معجم الدراسات الثقافية القاهرة، مصر: رؤية للنشر.
- بريه، إ. (1982). تاريخ الفلسفة، الفلسفة اليونانية، لبنان: دار الطليعة.
- بوحناش، ن. (2003). الأخلاق والرهانات الإنسانية، المغرب: إفريقيا الشرق.
- الخويلدي، ز. (2009). معان فلسفية، دمشق، سوريا: دار الفردق.
- الخويلدي، ز. وآخ. (2014). الفلسفة الغربية المعاصرة، بيروت، لبنان: منشورات ضفاف.
- ستيس، و. (1984). تاريخ الفلسفة اليونانية، القاهرة، مصر: دار الثقافة.
- صليبا، ج. (1982). المعجم الفلسفي، بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.
- طاهر، ع. (2005). نهايات الفضاء الفلسفي، القاهرة، مصر: مكتبة مدبولي.
- طرايشي، ج. (2006). معجم الفلاسفة، بيروت، لبنان: دار الطليعة.
- عادل، ه. (2015). التقدم العلمي التقني وأزمة العالم، (قراءة في فلسفة إدغار موران المستقبلية)، مجلة الأدب، ع، 111، العراق.
- الكلاعي، م. وآخ. (2015). الفلسفة الفرنسية المعاصرة، بيروت، لبنان: منشورات ضفاف.
- محمد، ا. (2006). هيدجر وسؤال الحداثة، المغرب: إفريقيا الشرق.
- موران، إ. (2009). النهج إنسانية البشرية الهوية البشرية، أبو ضبي، الإمارات: هيئة أبو ضبي للثقافة.
- موران، إ. (2012). المنهج معرفة المعرفة، أنثروبولوجيا المعرفة، بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- موران، إ. (2012). هل نسير إلى الهاوية؟ المغرب: إفريقيا الشرق.
- موران، إ. (2002). تربية المستقبل، المعارف السبع لتربية المستقبل، المغرب: دار توبقال.
- موران، إ. (2010). نحو سياسة حضارية، لبنان: الدار العربية للعلوم.
- موران، إ. وآخ. (2009). هل ينحدر العالم؟ سوريا: دار الحوار.
- نبيلة، ا. (2017). صورة المعرفة في الابستمولوجيا التركيبية والتكاملية، الأردن: دار الأيام.
- هننتغتون، ص. (1999). صدام الحضارات وإعادة النظام العالمي، ط2.

***- المراجع باللغة الأجنبية**

- Moran, E (2011). La voie, pour l'avenir de l'humanité, France, fayard.

***- المواقع**

- بلعقروز، ع. (2017). أنماط العقلانية، رصد ونقد، الاسترجاع من الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=ypDkqXoc26s>